لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة الخامسة ـ العدد التاسع (صفر ـ رجب ١٤٤٦)

نظرة في كتاب المبسوط في الإمامة وميزاته

الدكتور رضا عرب البافراني[١]/ الدكتور قاسم شهري[٢] / الشيخ قيس بهجت العطار[٣]

الخلاصة: إنّ الإمامة مسألة نادت بها الشرائع، وجاءت بها الكتب القديمة، وذكرها القرآن المجيد والسنّة النبويّة الشريفة، وأكّد عليها أشدّ التأكيد، فلهذا –ولغيره من أسباب وعلل وظروف- كثرت الكتابة واتّسع التأليف حول الإمامة منذ القرن الأوّل. قد اتّخذت الكتابات في الإمامة أشكالاً متعدّدة، فمنها الكتب الروائية التي تثبت أحقّية علي وأولاده عليهم السلام كسائر كتب الرواية والعقائد، ومنها الكتب التي استدلّت بالأدلة العقلية نقضاً وحلّاً، ومنها الكتب التي جمعت بين الأمرين، فاستدلّت بالقرآن وبالرواية وبالتواريخ والسير إلى جانب العقل في الاستنباط والنقض والإبرام، وأبرزها وأوسعها وأقدمها كتاب الشافي في الإمامة للشريف المرتضى. وقد تطوّر فنّ المحاجّة والاستدلال شيئاً فشيئاً، فألّفت الكتبُ المضغوطة العبارة دقيقة المطالب، كقسم

١. أستاذ مساعد/ قسم اللغة العربية وآدابها/ الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، مشهد المقدّسة/ إيران
Asst.Prof.Dr. Reza Arab Al-Bafrani: Assistant Professor/ Department of Arabic Language and Literature/ Razavi University of Islamic Sciences, Mashhad / Iran: arabbafrani.135@gmail.com

٢. أستاذ مساعد بجامعة المصطفى العالمية وجامعة الإمام الرضا عليه السلام/ مشهد المقدسة/ إيران
Asst.Prof.Dr. Qasem Shahri: Assistant Professor at Al-Mustafa International University and Imam Reza University/ Mashhad / Iran: Danesh.hamrah@gmail.com

٣. أستاذ بالجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية وجامعة المصطفى العالمية/ مشهد المقدّسة/ إيران
Sheikh Qais Bahjat Al-Attar: Professor at Razavi University of Islamic Sciences and Al-Mustafa International University / Mashhad / Iran

الإمامة من كتاب تجريد الاعتقاد. وفي هذا المجال يقف كتاب (المبسوط في الإمامة) ماثلاً للعيان، فهو كتاب استدلالي متين، يجمع بين اختصار العبارات ودقّة المطالب. تهدف هذه المقالة بمنهجها الوصفي-التحليلي إلى بيان أهمية هذا الكتاب وميزاته التي امتاز بها. فإنّه كتاب صعبُ الهضم، قويّ الحجّة، متين السبك، مختصر العبارات، مملوء بالاصطلاحات المنطقية واللغوية والفلسفية والفقهيّة وغيرها. إنّه لا يطيل في ذكر الروايات واستقصائها، وإنّما يشير إلى ثبوتها، ثمّ يرتّب الاستدلال عليها. جمع هذا الكتاب بين الاختصار والدقّة، وحبك العبارة وبلاغتها، واستقصاء المطالب وتفريعاتها، وحسن التقسيم وفائدة الاستطرادات، وتزاحم المطالب دون التداخل، وابتكار المؤلّف والأخذ من السابقين، وحسن الاستدلال بعد حسن الإشارة إلى المطالب. والجدير بالذكر أنّ المؤلّف قد تأثّر تأثّراً كبيراً بالسيّد المرتضى في كتابه «الشافي في الإمامة»، فاحتذى حذوه، وسلك مسلكه.

الكلمات المفتاحية: الإمامة، الشيخ عبد النبي الجزائري، المبسوط في الإمامة.

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين.

وبعد، فإنّ الإمامة مسألة نادت بها الشرائع، وجاءت بها الكتب القديمة، وذكرها القرآن المجيد والسنّة النبويّة الشريفة، وأكّد عليها أشدّ التأكيد.

ولأهميّتها وعظم شأنها لم ينلها جميع الأنبياء والرسل بل بعضهم، فهي مرتبة أسمى من النبوّة، إذ جعل الله عزّوجلّ إبراهيم عليه السلام إماماً وحباه بها بعد النبوّة والرسالة، ولذلك أكّد رسول الله بشتّى الألفاظ، وفي عدّة أماكن، ولجميع طبقات المسلمين، على الأئمة من بعده، وبيّنهم تارة بالصفات، وأخرى بالعَين والذات.

لكنّ أسباباً متعدّدة ومطامع مختلفة، ودوافع ودخائل قديمة، دعت البعض لمحاولة التسلّق عل هذا البناء الشامخ بعد رسول الله، فكان أكبر نزاع أطوله أمداً بعد رسول الله هو نزاع الإمامة وكانت السقيفة وحوادثها خير دليل على هذا الاحتلام المرير، والصراع القاسي الذي سلّت فيه السيوف.

وقد استمرّ هذا النزاع، واتّخذ أشكالاً متعدّدة منذ ذلك اليوم وحتّى اليوم الحاضر، فادّعت مدرسة الخلفاء أنّ الإمامة من الفروع وأنكرت كونها من الأصول، وتخبّطت في شرائط الإمامة والإمام أيّما تخبّط، وافترضت إمكان وجود إمامين وراحت تُنَظِّر للحلّ في مثل هذا الفرض، ووو ... .

كلّ هذه المدّعيات كان أصلها محاولة تبرير نصب أبي بكر للخلافة، ثمّ تصحيح إدلائه بها لعمر، ثمّ جَعلِ عمر لها في ستّة زعم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أحدهم، ثمّ تسلّط معاوية ويزيد والمروانيين والأمويين والعبّاسيين... وهلمّ جرّاً.

فلهذا الذي ذكرناه- ولغيره من أسباب وعلل وظروف- كثرت الكتابة واتّسع التأليف حول الإمامة منذ القرن الأوّل، حتّى إنّك تجد كتاب سليم بن قيس شاهداً ماثلاً على ذلك، مع غيره من الكتب التي لم تصلنا.

وقد اتّخذت الكتابات في الإمامة أشكالاً متعدّدة، فمنها الكتب الروائية التي تثبت أحقّية علي وأولاده عليهم السلام كسائر كتب الرواية والعقائد كبصائر الدرجات، ومنها الكتب التي استدلّت بالأدلة العقلية نقضاً وحلّاً ككتب الجاحظ، ومنها الكتب التي جمعت بين الأمرين، فاستدلّت بالقرآن وبالرواية وبالتواريخ والسير إلى جانب العقل في الاستنباط والنقض والإبرام، وأبرزها وأوسعها وأقدمها كتاب الشافي في الإمامة للشريف المرتضى.

وقد تطوّر فنّ المحاجّة والاستدلال شيئاً فشيئاً، فألّفت الكتبُ المضغوطة العبارة دقيقة المطالب، كقسم الإمامة من كتاب تجريد الاعتقاد، ولذلك كثرت عليه الحواشي والشروح.

وفي هذا المجال يقف كتاب (المبسوط في الإمامة) ماثلاً للعيان، فهو كتاب استدلالي متين، يجمع بين اختصار العبارات ودقّة المطالب، فمن هو مؤلّف هذا الكتاب؟ وما هو منهجه في التأليف؟

المؤلّف

هو الشيخ عبد النبي بن سعد الدين الأسدي الجزائري، والجزائري: نسبة إلى الجزائر، جمع جزيرة، وهي الأرض المحيط بها الماء. والجزائر هي منطقة (الجبايش) اليوم، التي كانت تابعة لمحافظة الناصرية، وقد صارت في عام ١٩٦١م قضاءً يسمّى بقضاء الجزائر.

وقد نُسب إلى الجزائر كثير من العلماء والفضلاء والأدباء، مثل السيّد نعمة الله الجزائري، والشيخ محمّد بن سليمان الجزائري الفقيه النحوي، والميرزا محمّد الجزائري صاحب كتاب جوامع الكلم.

والظاهر أنّ الشيخ عبدالنبيّ درس في بلدته الجزائر، ثمّ انتقل إلى النجف الأشرف ليدرس فيها، ثمّ عاد إلى منطقته، وهناك كان نزاع حول الإملاك من بعض العشائر، فتدخل الشيخ وفضّ النزاع، وأعطى الملك لأصحابه، وذلك بمعونة حاكم منطقة الجزائر آنذاك.

لكن يبدو أنّه سكن في أواخر عمره في كربلاء المقدّسة، فقد أتمّ كتابه شرح التهذيب

في سنتي ١٠١٠ و١٠١١هـ في كربلاء المقدّسة، وفرغ من تأليف كتابه (الإمامة) في سنة ١٠١٣هـ في كربلاء المقدّسة.

وقد كتب في آخر النسخة: واتّفق الفراغ من مشقه في الثلث الأوّل من ليلة الخميس، خامس الثلث الثالث من خامس شهور السنة الثالثة بعد العشر التي بعد المائة العاشرة من هجرة سيّد الأوّلين والآخرين محمّد رسول ربّ العالمين، على يد أفقر خلق الله وأحوجهم، عبد النبي بن سعد الدين، الجزائري محتداً، الغروي تحصيلاً، الحائري مسكناً، في البقعة المشرفة لسيّد الشهداء وخامس أهل العباء المقتول في كربلاء.

ولادته

لا يعرف تاريخ ولادته بالضبط، لكن يبدو من مجموع القرائن أنّه من مواليد منتصف القرن العاشر؛ فقد كان معاصراً للمولى الأردبيلي والشيخ البهائي وصاحب المعالم وصاحب المدارك، وأمثالهم.

مشايخه وتلامذته

لا نعرف كثيراً عن أوائل نشأته، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّه رحمه الله كان في بدايات دراساته وشبابه في منطقة الجزائر البعيدة عن الأجواء والأضواء العلميّة، وإن كانت بنفسها حاوية للعلماء والفضلاء آنذاك، فلذلك لم يتسنّ لناالوقوف على جميع مشايخه وأساتذته، وكذلك تلامذته، وذلك لأنّه ذهب من الجزائر إلى النجف الأشرف، ودرس بها، ثمّ حصل على مرتبة الاجتهاد وعاد إلى منطقته الجزائر، ثمّ سكن في كربلاء، ويبدو أنّه طال بقاؤه في منطقة الجزائر، فلذلك لم يُعرف تمام أساتذته وتلامذته، فنذكر من عثرنا عليه وهم:

١- الشيخ جابر بن عبّاس النجفي، وهو من أجل تلامذة الجزائي هذا، ويروي عنه. وهو عالم جليل فاضل فقيه من أجلاء الطائفة.

٢- ولده الشيخ حسن بن عبدالنبي الجزائري، له تعليقات على كتاب (الحاوي) لوالده.

٣- السيّد علي بن صالح بن فلجي الجزائري.

٤- السيّد شرف الدين علي بن نعمة الله بن حبيب الله بن نصر الله الحسيني الموسوي الجزائري، والد السيّد محمّد المشهور بالسيّد ميرزا الجزائري.

٥- الشيخ فضل بن محمّد بن فضل العبّاسي، استجاز من الشيخ عبدالنبي في أواخر شعبان سنة ١٠٢٠ هـ.

٦- الشيخ محمّد بن الحسين الأحسائي، قال السيّد المرعشي: رأيت إجازة المترجم له على ظهر نسخة من الفقيه.

٧- ولده الأصغر الشيخ محمّد بن عبدالنبي.

٨- السيّد محمّد بن علي الموسوي العاملي، صاحب (مدراك الأحكام)، يروي عنه الشيخ عبدالنبي الجزائري.

٩- المولى محمّد قاسم بن الحاج محمّد المشهدي، له إجازة من الشيخ عبدالنبي في أوائل رجب سنة ٩٩٩هـ.

١٠- السيّد محمّد بن شرف الدين علي المتقدّم ذكره، المشهور بالسيّد ميرزا الجزائري، وهو يروي عن الشيخ عبدالنبي الجزائري بواسطة والده.

إطراء العلماء عليه

وصفه السيّد ميرزا الجزائري في إجازته لصاحب البحار بقوله: رئيس الإسلام والمسلمين، وسلطان المحقّقين والمدقّقين[١].

وفي أسانيد المجلسي عند إجازته للفاضل المشهدي: شيخ المحقّقين[٢].

ووصفه المحدّث النوري بـ: رئيس الإسلام والمسلمين، وسلطان المحقّقين والمدقّقين[٣].

وقال الجزائري في الإجازة الكبيرة: العلامة التقي الشيخ عبد النبي بن سعد الجزائري[٤].

وقال الشيخ حسن بن عبّاس البلاغي: كان علّامة وقته، كثير العلم، نقي الكلام، جيّد التصانيف، من أجلّاء مجتهدي هذه الطائفة[٥].

وقال الصدر الكاظمي: الشيخ الكبير الأعلم[٦].

وقال الشيخ عبّاس القمي: العالم المتبحّر في فنّ الحديث والرجال، الشيخ عبدالنبي صاحب كتاب حاوي الأقوال[٧].

ومن وقف على مؤلّفاته، وتنوّعها، وكثرتها، ودقّة مطالبها، عرف أنّ هذه المدائح لم تُقَل فيه إلّا وفيه ابتكار وجدة، ودقّة علميّة تُخليه عن التطويل والإسهاب، وتخلّصه من الاختصار المخلّ، وستقف على ما نقوله بعد قليل، وبعد ملاحظة هذا الكتاب الجليل.

مؤلّفاته

١- أجوبة مسائل الشيخ جابر بن عبّاس النجفي.

٢- الاقتصاد في شرح الإرشاد: وهو شرح كتاب إرشاد الأذهان للعلّامة الحلّي، ألّفه بالتماس من السيّد شمس الدين بن علي بن حسن شدقم المدني، في المدينة المنوّرة. خرج من أوّله إلى الزكاة.

٣- الحاشية على الإرشاد: وهي حواشي مختصرة مقصورة على الفتوى دون الاستدلال، وصلت إلى كتاب النكاح.

٤- حاشية على الكافي، لم يتمّها.

٥- حاشية على المختصر النافع: وهي حاشية كاملة على جميع كتاب المختصر النافع، وهي أبسط من حاشيته على الإرشاد.

٦- حاشية علىنقج الرجال: تردّد الأفندي في كونها للشيخ عبدالنبي أو لعناية الله القهبائي. واستظهر النوري أنّها للقهبائي، وصرّح الكَنِي في توضيح المقال بأنّه رأى حواشي القهبائي على نقد الرجال.

٧- حاوي الأقوال في معرفة الرجال: وهو من أشهر الكتب الرجاليّة، وقد اعتنى به العلماء غاية الاعتناء وجعلوه نصب أعينهم، وقد قسم كتابه إلى أربعة أقسام: الصحاح، الحسان، الموثّقون، الضعاف، وسلك مسلكاً فيه تشدّد، فلم يسلم من المؤاخذات.

٨- الحواشي على التهذيب: وهي حواشي على كتاب تهذيب الأحكام

٩- شرح تهذيب الأصول: وهو شرح لكتاب العلّامة الحلّي المسمّى بتهذيب الأصول، وهو شرح مزجيّ ع المتن، وفيه فوائد جليلة في أصول الفقه. فرغ من جزئه الأوّل في ٢١/ جمادى الأولى/ سنة ١٠١٠هـ في كربلاء، وتمّم نقصان الجزء الثاني سنة ١٠١١هـ.

١٠- كتاب الإمامة، وهو هذا الكتاب الماثل بين يديك، وقد يعبّر عنه بـ (المبسوط في الإمامة)، لكنّه تساهل، إذ نصّ عبدالنبيّ على تسميته بكتاب الإمامة، فرغ من تأليفه وتسويده سنة ١٠١٣هـ في كربلاء المقدّسة.

وفاته

لا اختلاف في أنّه رحمه الله توفّي سنة١٠٢١هـ، وذلك ما نصّ عليه جميع مترجميه. لكنّ العجب هو ما نصّ عليه الشيخ بهاء الدين العاملي في كتابه (الفوائد)، حيث قال في الفائدة الأخيرة وهي الفائدة الأربعون: توفّي الشيخ عبدالنبي يوم الخميس الثاي عشر من جمادى الأولى سنة ١٠٢١هـ، في قرية بين إصفهان وشيراز، وقبره الآن معروف في شيراز.

وقد ذكر بعضهم أنّه مدفون عند (شاه‌چراغ). لكنّ السيّد الرعشي النجفي رحمه الله قال بأنّه ذهب إلى هناك ولم يَرَ ذلك[٨].

وعلى كلّ حال، فاليوم لا يوجد أثر لقبر هذا العالم الجليل في شيراز، لا عند شاه‌چراغ ولا في مكان آخر معروف.

نحن والكتاب

اسم الكتاب

قال الآغا بزرك: قد يعبّر عنه بكتاب (المبسوط في الإمامة)، لكنّه سمّاه باسم الإمامة كما عبّر عنه المؤلّف في متن كتابه[٩].

وقد طبع في النجف الأشرف باسم (المبسوط في الإمامة)، وذلك اعتماداً على النسخة المحفوظة في مكتبة كاشف الغطاء والتي سيأتي ذكرها، حيث كتب في أوّلها قبل بدء متن المؤلّف: «هذا كتاب المبسوط في الإمامة للشيخ الكبير والعلّامة الشهير عبدالنبي بن الشيخ سعدالدين الأسدي الشهير بالجزائري».

ولا أرى سبباً معقولاً، أو علّة مقنعة لهذه التسمية، وذلك لأنّ المؤلّف قال: «وبعد، فهذه نبذة متعلّقة بالإمامة»[10]، فهو لم يصرّح بغير اسم «الإمامة». وهذا ما ورد في نسخة المكتبة الرضوية المقدّسة، حيث ذكر اسم الكتاب «كتاب الإمامة للشيخ عبد النبي الجزائري صاحب كتاب حاوي الأقوال في معرفة الرجال» وهذه النسخة أقدم من النسخة الأخرى.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ الكتاب ليس مبسوطاً، ولا واسع البحوث حتّى تصحّ تسميته بـ «المبسوط»، ولعلّ الخونساري أشار إلى ذلك حيث قال: «وهو لا يزيد على خمسة آلاف بيت تقريباً»[11].

نعم، ربّما كان مطمح نظر من سمّاه بهذه التسمية هو أنّه تناول أمّهات مسائل الإمامة وعيونها، وحقّقها أحسن تحقيق، بأخصر العبارات، فهو مبسوط من جهة كثة مضامينه، ودقّة استدلالاته، وتشعب تفريعاته الضمنية، وإلى ذلك أشار الخونساري بقوله: «ولقد حقّق القول فيه بما لا مزيد عليه»[12].

أهميّة الكتاب

وأمّا أهميّة الكتاب وميزاته التي امتاز بها، فتحتاج إلى شيء من التفصيل والتطويل ليس هذا محلّه، فنكتفي هنا بما يبيّن خطّة الكتاب إجمالاً، وميزة منهجه وموادّه العلميّة، فنقول:

لقد رسم المؤلّف خطّةً لكتابه تقوم على تقسيمه إلى أربعة مقامات رئيسة، كلّ مقام منها يتضمّن سؤالاً أساسياً.

الأوّل: في مطلب «ما»، أي ما الإمامة؟ وفيه بيان ماهيّتها ومفهومها. وهو لا يتجاوز صفحتين. وفي هذا المقام يقول: «لا ريب أنّ الإمامة تقال على ما يشمل النبوّةَ، وهي الإمامة المطلقة، وهي رئاسة عامّة في أمور الدين والدنيا. وتقال على ما يقابلها، وهي الإمامة الخاصّة المقصودة بالبحث لها هنا، وقد عرّفها جماعة المتكلّمين منّا ومن المخالفين: بأنّها رئاسة عامّة في أمور الدين والدنيا خلافةً عن النبي..، ولا ريب أنّ هذا التعريف مؤيّد لمذهب الإمامية في اشتراط النصّ والعصمة والأفضلية في الإمامة، فإنّ الرئاسة العامّة في جميع أمور الدين والدنيا خلافةً عن النبيّ لا تتيسّر إلا إذا كان ذلك الإمام جامعاً لما ذكرناه

من الأوصاف؛ فإنّ خلافته عن النبيّ إنّما هي في إعلام العقائد الحقّة والأعمال الصالحة والتدابير الموافقة، بحيث يجب على الكلّ اتّباعه، وذلك لا يحصل بدون العصمة وكونه أفضل التابعين له، وكذا كونها خلافةً عن النبيّ لا تحصل بدون استخلافه له، ونفي هذه الأمور مع الاعتراف بصحّة التعريف لا يبعد كونه نوعاً من المكابرة».

الثاني: في مطلب «هل» المركّبة، أي هل الإمامة واجبة أم لا؟ وإذا كانت واجبة، فهل هي واجبة علينا أو على الله؟ وهل وجوبها عقلاً أم سمعاً؟ وهو قرابة عشر صفحات.

وقد ذكر في هذا المقام مذهب الإمامية قائلاً: «الذي ذهب إليه أصحابنا الإمامية –وكذا الإسماعيلية- هو وجوبها على الله عقلاً؛ لوجوه: الأول: إنّ الإمامة لطف في حقّ العباد به يحصل الانتظام ويزول الفساد... والثاني: إنّ الله تعالى خلق الإنسان وجعله مدنيّاً بالطبع، أي لا بدّ له في بقائه من التمدّن -أي اجتماعه مع بني نوعه؛ إذ هو لا يستقلّ فيما يحتاج إليه في المعاش والغذاء واللباس والمسكن والسلاح وأمثال ذلك من الأمور الصناعية التي لا يقدر عليها صانع واحدٌ مدّةَ حياته- إبقاءً للبدن وصوناً له من الحرّ والبرد وغيرهما... ولا بدّ من شارع يبيّن تلك القواعد، ويوضّح عُقَد تلك المعاقد، لكونه تعالى في غاية التجرّد عن الإشارة الحسّيّة، وأفرادُ النوع في غاية القصور عن الاستفادة من الذات الواجبة، لكون النفس الإنسانية منغمسة في العلائق البدنيّة مكدَّرةً بالكدورات الطبيعية، فلا بدّ من متوسّط بين تلك الحضرة العليّة وبين الطبائع السفليّة الرديّة... ولا بدّ أيضاً أن يميّز الله تعالى ذلك الشارع من بينهم باستحقاق الطاعة، ويؤيّده بما يحصل به وثوقُ تفوس الجماعة لينقادوا إليه ويعتمدوا في فنون الأحكام عليه، وهذا الاختصاص إنّما يثبت باختصاصه بالآيات، ولا يتعيّن إلا بإيضاح المعجزات... وأنت بصير بأنّ العلة المقتضية لنصب الشارع الذي سمَّوه نبيّاً موجودة في كلّ زمان وواقعة في كلّ عصر وأوان، فلا بدّ من نصب شارع مطاع في جميع الأزمان والأصقاع، موصوفٍ بتلك الصفات، مؤيّد بتلك المعجزات، ولا خصوصية لكونه نبيّاً، بل من قام مقام النبيّ في إزالة العلّة كافٍ في المطلوب، وهو الذي قام عليه الدليل؛ إذ لا امتياز بين النبوّة والإمامة إلا بكون الواسطة في الأوّل غيرَ بشريّةٍ، فلا بدّ من المشاركة في باقي الصفات، كما هو الواقع في حال فقد الأنبياء السابقين بسبب موت أو غيبة اقتضتها حكمةُ ربّ العالمين. والثالث: إنّ الإمام

ينبئ عن الأحكام التي لا يستقلّ العقل بإدراكها وإن كانت ضرورية في حدّ ذاتها، ويعين على دفع الشبهات، ويعضد العقل بتحصيل المقدّمات، كما هو الواقع في زمن الأئمة الهداة وأهل العصمة من الولاة. والرابع: إنّه يُرشد إلى الصنائع الخفيّة والمآكيل القاتلة والشهيّة وغير ذلك من تعليم قواعد العلوم الطبيعية والمسائل الحكميّة التي بها قوام الأبدان، وفي تدبيرها حفظ نوع الإنسان.»

الثالث: في مطلب «كيف»، أي كيف يكون الإمام؟ وهي الأوصاف العامّة والخاصّة التي يتّصف بها. وهو قرابة عشرين صفحة. وقد عدّ هذه الأوصاف كالتالي: وجوب عصمته، ووجوب أن يكون الإمام أفضل من رعيّته، وأن يكون منصوصاً عليه من الله أو من رسوله أو من إمام قبله.

الرابع: في مطلب «من»، أي من هو الإمام بعد رسول الله؟ وهذا المطلب وتشعّباته هو الذي احتلّ باقي الكتاب. وأُلحق في آخره تنبيهات.

هذه خطّة الكتاب إجمالاً، لكنّ تفصيل مطالبه –أو قل: تفصيل مطالب المقام الرابع- هو الذي يحتاج إلى الدقّة والعناية؛ لأنّ فيه تداخلاً واسترسالاً في بحوثه لا يمكن لكلّ أحد دركها، بل لا يفهمها إلا الفاضل اللوذعي، والخبير بمواطن البحوث والشبهات وكيفيّات ردودها.

ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا بأنّ هذا الكتاب يصلح أن يكون كتاباً درسيّاً، لكي يستطيع الأستاذ أن يوضّح زواياه وخباياه واستدلالاته ونقوضه وإبراماته للطلاب، وإلّا فإنّه كتاب صعبُ الهضم، قويّ الحجّة، متين السبك، مختصر العبارات مضغوطها، مملوء بالاصطلاحات المنطقية واللغوية والفلسفية والفقهيّة وغيرها، فلا يتيسّر لكلّ أحد درك مغازيه وسبر أغواره.

وهو لا يطيل في ذكر الروايات واستقصائها، وإنّما يشير إلى ثبوتها، ثمّ يرتّب الاستدلال عليها. فخذ مثلاً بداية المقام الرابع حيث قال فيه في تعيين الإمام بعد النبي:

ذهب قوم إلى أنّه أبوبكر بن أبي قحافة، وآخرون إلى أنّه العبّاس بن عبدالمطّلب.

وقالت الشيعة كلّها: هو علي بن أبي طالب، هو الحقّ المنير، كما دلّ عليه العقل، وكتابُ القدير، وورد به النصّ الكثير... إلخ.

فلاحظ عبارة «وقالت الشيعة كلّها» حيث إنّها تدلّ على أنّ جميع فرق الشيعة – الاثني عشرية، والزيدية، والإسماعيلية، وغيرها من فرق الشيعة- كلّها تذهب إلى أنّ الإمام بلا فصل بعد النبي هو عليّ عليه السلام، وقد أشار إلى عمدة الأدلّة على ذلك، وهو العقل باعتبار أنّ عليّاً هو الأكمل وهو المعصوم، ويقبح تقديم المفضول على الفاضل أو الأفضل وغيرها من الأدلّة العقليّة، ثمّ أشار إلى أنّ آيات القرآن المجيد أيضاً دلّت على أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام هو الإمام، بنصّ آية إكمال الدين والتطهير، وآية النجوى وعشرات الآيات الأخرى، التي تحتاج كلّ آية منها إلى بحث مستقل في شأن نزولها، ومفادها ومعناها، وكيفية دلالتها على المطلوب، وكذلك النصّ الكثير، فهو إشارة إلى حديث الغدير، وحديث المنزلة، وحديث الخليفة والولاية، وحديث الطائر، وحديث الأبواب، وغزاة السلسلة، وتبوك، ويوم الأحزاب، وخيبر، وأحد، والمدينة، وحديث القتال على التأويل كالتنزيل، ويوم المؤاخاة، ويوم المباهلة، وبعثته قاضياً إلى اليمن، واستخلافه على المدينة، ويوم براءة، وغير ذلك من الأخبار التي لا تحصى، والوقائع التي لا تستقصى[١٣].

فكلّ واحد من هذه الأحاديث ربّما يحتاج بمفرده إلى مجلّد أو مجلّدات، ويحتاج إلى الإيضاح في دلالته، وروايته ورواته، لكنّ المؤلّف يعرض عن كلّ هذا ويأخذ بالكلام عن مجموعها، فإنّه لا ريب فيه، ويستعرض الدليل بنحو الادّعاء المستغرِق للمدّعَى بعد فرضه مفروغاً عنه، ثمّ يذهب إلى ذكر تمحّل المخالفين وسببه ويستطرد في الاستدلال، ودفع الدخل، بنحو قوله: «لا يقال كذا» «لأنّا نقول كذا».

فهو كتاب استدلالي دراسي، وليس كتاباً عاديّاً يستطيع فهمه كلُّ أحد.

وقد تأثّر المؤلّف تأثّراً كبيراً بالسيّد المرتضى في كتابه «الشافي في الإمامة»، فاحتذى حذوه، وسلك مسلكه، حتّى أنّنا لولا المبالغة لقلنا إنّه تلخيص علميّ لأمّهات مطالب كتاب الشافي في الإمامة، ولعلّ كتابه هذا لا يختلف عن كتابه الرجالي في أسلوبه من حيث تقنين القوانين، ورسم الخطوط بدقّة، ثمّ النقاش على أساسها، فلذلك ترى أسلوب التقسيم المنطقي، ودفع الدَّخل، والردّ نقضاً وحلّاً، هو الأسلوب البارز في الكتاب، وهو نفس أسلوبه في كتابه الرجالي من حيث تحديد المباني بدقّة.

والنكتة اللافتة للنظر هي مدى تسلّطه على اللسان العربي، وقدرته على تصريف

أزمّة وأعنان الكلمات كيف يشاء، فهو لا يشذّ في زحمة الصراع العلمي والدقّة الصعبة عن انتقاء الكلمات الأدبية المؤثّرة، والأسجاع الجميلة التي زيّن بها كلّ نواحي كتابه.

فاقرأ وله في متخاذلي الأصحاب، ومن تستروا بالنفاق، فلا يصحّ الحكم بِعَدالتهم جميعاً، اقرأ قوله:

وبالجملة: لو اطلعت على باطن أمرهم، وخبث ضمائرهم ودغلهم -كمّا دلّت عليه الآيات، ونطقت به الروايات- وجدتهم إنّما أظهروا للرسول الطاعة، وأضمروا الخيانة والشناعة... [١٤].

وهكذا جمع هذا الكتاب، بين الاختصار والدقّة، وحبك العبارة وبلاغتها، واستقصاء المطالب وتفريعاتها، وحسن التقسيم وفائدة الاستطرادات، وتزاحم المطالب دون التداخل، وابتكار المؤلّف والأخذ من السابقين، وحسن الاستدلال بعد حسن الإشارة إلى المطالب، لكن يبقى القول أنّه كتاب يكاد يكون تخصصيّاً يحتاج إلى من يبيّن مطالبه ومغازيه.

ولأهميّة هذا الكتاب، توجّه أحدُ طلّاب جامعة فردوسي في مشهد المقدّسة، وهو الأستاذ محمّدرضا كرامتي، إلى طرحه لنيل رسالة الماجستير في فرع الفلسفة وعلم الكلام، وقد نال ذلك في سنة ١٩٩٨م بإشراف الأستاذ السيّد جلال الدين الآشتياني، والأستاذ المساعد عزيز الله فياض الصابري.

وأخيرا قد حقّقه وصحّحه سماحة العلّامة المحقّق الشيخ قيس العطار وزاده جمالاً وإتقاناً وعلماً، محقّقاً على ثلاث نسخ وهي:

١- نسخة المكتبة الرضوية المقدّسة، المحفوظة برقم ٧٤٤٥، وهي بخطّ النسخ، مجهولة الكتاب، مؤلّفة من١٩٣ورقة، بطول ١٨ سم × عرض ١٢ سم، في كلّ صفحة ١٥ سطراً. وهي نسخة مضبوطة المتن، وخطّها أقدم من النسخة الأخرى. وقد رمز لها بالحرف «س».

٢- نسخة مكتبة كاشف الغطاء في النجف الأشرف - وهي بخطّ النسخ، كتبها سبط المؤلّف الشيخ محمّد جواد الجزائري، وفرغ من نسخها في ضحى يوم الاثنين ٢٧/ ربيع الأوّل/ ١٣٥٩هـ، وهي مؤلّفة من ١٩١ صفحة، بطول ٢١/٤ سم × عرض ١٦/٨ سم، في كلّ صفحة ١٨- ١٩ سطراً.

وعلى هذه النسخة مقابلات واستظهارات وتصحيحات للشيخ المرحوم العلّامة محمّد السماوي. وقد رمز لها بالحرف «ك».

٣- مطبوعة النجف الأشرف في المطبعة الحيدرية سنة ١٣٧٣هـ،-١٩٥٤م، بتقديم وتحقيق المرحوم علي الخاقاني، ونسخة الخاقاني هذه استنسخها عن النسخة المتقدّمة الذكر «ك»، حيث كتب في آخر المطبوعة: «وفرغ من نسخة علي الخاقاني الحميري النجفي في مدينة النجف الأشرف في داره بطرف الحُوَيش، قرب مدرسة العلّامة المرحوم السيّد كاظم اليزدي من شهور سنة الألف والثلاثمائة والستّين هجريّة الموافق ستّة عشر كانون الثاني من شهور سنة الألف والتسعمائة والثانية والأربعين ميلاديّة». وهذه النسخة وقعت فيها أغلاط وتصحيفات طباعية وغير طباعية. وقد رمز لها بالحرف «ن».

وقد بذل الأستاذ قصارى جهده في تحقيق هذا الكتاب الشريف ودقّق غاية التدقيق في مرادات المؤلّف وعباراته، رغم قصور النسخ، فلله درّه وعليه أجره.

هوامش البحث

١) بحار الأنوار ١٠٧:١٣٦.
٢) بحار الأنوار ١٠٧:١٥٩.
٣) مستدرك الوسائل ٣:٤٠٣.
٤) الإجازة الكبيرة: ٨١.
٥) روضات الجنّات ٤:٢٦٩.
٦) تكملة أمل الآل: ٢٢٠.
٧) الكنى والألقاب ٢:٣٣١.
٨) انظر مقدّمة كتاب حاوي الأقوال: ٣٧-٣٨.
٩) الذريعة ١٩:٥٣.
١٠) انظر خطبة كتاب المبسوط في الإمامة، لعبد النبي بن سعد الدين الجزائري، تحقيق سماحة الشيخ قيس العطار.
١١) روضات الجنّات ٤:٢٧١. وانظر مصفّى المقال: ٢٥١.
١٢) روضات الجنّات ٤:٢٧١.
١٣) انظر هذه العبارات في ص: ٦٣ من كتاب المبسوط في الإمامة.
١٤) انظر كتاب المبسوط في الإمامة ص: ٦٣.

المصادر

١- آقابزرك الطهراني. **الذريعة**. نشر: دارالأضواء. بيروت- لبنان. الطبعة الثانية. ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢- ---------. **مصفّى المقال في مصنّفي علم الرجال**. عني بتصحيحه ونشره: أحمد المنزوي. طهران. الطبعة الأولى. ١٣٧٨ه،-١٩٥٩م.

٣- الجزائري، الشيخ عبدالنبي بن سعدالدين الأسدي. **حاوي الأقوال**. تحقيق: مؤسسة الهداية لاحياء التراث. قم. ١٤١٨ هـ.

٤- ---------. **المبسوط في الإمامة**. تحقيق: الشيخ قيس العطار. نشر: المكتبة المتخصّصة بأميرالمؤمنين عليه السلام. مشهد. الطبعة الأولى. ١٤٣٢هـ-١٣٨٩ش.

٥- الجزائري التستري، السيّد عبدالله. **الإجازة الكبيرة**. نشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي. قم. الطبعة الأولى. ١٤٠٩ه.

٦- الصدر، السيّد حسن. **تكملة أمل الآمل**. تحقيق: السيّد أحمد الحسيني. نشر: مكتبة آية الله المرعشي. قم. ١٤٠٦هـ.

٧- القمي، الشيخ عبّاس. **الكنى والألقاب**. تقديم: محمّد هادي الأميني. مكتبة الصدر. طهران.

٨- المجلسي، الشيخ محمّدباقر. **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**. مؤسسة الوفاء. بيروت - لبنان. الطبعة الثانية. ١٤٠٣هـ.

مستدرك الوسائل ٣:٤٠٣.

٩- الموسوي الخوانساري، محمّدباقر. **روضات الجنّات**. نشر: إسماعيليان. الطبعة الأولى. ١٣٩٠ش.